الأستاذ رشيد بن مالك

المحاضرة التاسعة في مادة السيميولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الاتصال

المواجهة/البنية الجدالية

في

كليلة و دمنة لعبد الله بن المقفع

قراءة سيميائية

وإذا كان بيدبا قد فشل في تعبئة تلاميذه، فإنه قرر الذهاب إلى القصر ومقابلة الملك. ومن الواضح أن اتخاذ قرار المواجهة أو تنفيذ المهمة المؤهلة يرتهن في وجوده إلى مجموعة من الجهات التي تدخل في تشكيل كفاءة الفيلسوف الذي أسس نفسه فاعلا في برنامج التغيير في الوقت الذي أدرك الشرخ الموجود بين السلطة والرعية. في هذه اللحظة ملكته الرغبة في التغيير الذي أضحى المنفذ الوحيد الذي تتسرب عبره القيم الصائنة لكرامة الإنسان. يتمظهر وجوب القيام بالفعل، والرغبة في التغيير عبر الملفوظات الآتية :

"إن الفيلسوف لحقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور"[27].

"فلما رأى الملك و ما هو عليه من الظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة عما هو عليه و رده إلى العدل و الإنصاف"[28].

"و نحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك، إلا لنردهم إلى فعل الخير، ولزوم العدل".

"و لا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه"[29]

"غير أني قد رأيت رأيا و عزمت عزما" [30].

"و قد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم "[31].

إن امتلاك بيدبا هاتين الجهتين سيمكنه من الانتقال إلى تحيين مشروعه الذي سيثير بعض التساؤلات تتعلق، في المقام الأول، بميزان القوى على مستوى القدرة المادية. وهو ميزان في غير صالحه لوجود قوتين غير متكافئتين، وتخص، في المقام الثاني، أهليته في توقع و برمجة العمليات الضرورية لمواجهة الملك أولا، وصرفه عما هو عليه بعد إقناعه ثانيا. يعتبر بيدبا مسألة الغطاء المادي للفعل محسومة سلفا، ولا تشكل عائقا لإدراكه أن :

"العاقل يبلغ بحيلته ما لم يبلغ بالخيل و الجنود"[32].

إن بيدبا يثمن ،على المستوى العرفاني، القوة العقلية المجسدة في الحيلة والتي تفهم في هذا المساق على أنها **الحذق، وجودة النظر، والقدرة على دقة التصرف في الأمور**. يتعامل بيدبا مع دبشليم بمنطق مبني على التمييز بين القدرة المادية التي يملكها الملك والمتمثلة في الخيل والجنود، والقدرة العقلية التي تتماهى مع المعرفة المحتكمة إلى الاستدلال المنطقي، والمهارة في التدبير.

فالمنطق الإقناعي الذي يتجسد في حكايات **كليلة ودمنة**، وبشكل خاص في **القنبرة والفيل**،**والغراب والبوم**، **والأرانب والفيلة** يطرح فيه الراوي القوة العقلية كبديل للقوة المادية. وسيلجأ إليها بيدبا لمواجهة الملك التي تبدأ، بعد وصوله إلى فضاء القصر، بممارسة الطقوس (**وامتثاله بين يدي الملك مكفرا ساجدا له**) المشيدة بالملك، وعظمته. وتعكس هذه الطقوس في بداية الأمر علاقة حاكم بمحكوم **يفضل** من الناحية الإستراتيجية، في بداية هذه المواجهة، **السكوت عن الكلام:**

"استوى قائما و سكت"[33]

"وفكر دبشليم في سكوته"[34].

"وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكتا

لا تعرض حاجتك ولا تذكر بغيتك"[35].

في هذه اللحظة من السرد ، قلب بيدبا العلاقة الأولى، وأحدث شرخا في عملية التواصل أضحى الملك فيها تابعا له ينتظر موضوع النصيحة، ويفكر في سكوته.من الواضح أن النص في بنينته يقترح ،على المستوى التداولي، تأويلا للسكوت انطلاقا من الوضعية التلفظية التي يحتلها الملك. وعليه، فإن السكوت أحدث نقصًا لدى الملك، وأثار في ذهنه تساؤلات حركته للقيام بعملية التحري عن مغزى الزيارة ومضمون البغية والنصيحة، ومن ثم إعطاء معنى للسكوت. ولئن كان مضمون النصيحة قول

فيه دعاء إلى صلاح، ونهي عن فساد، فإن دبشليم أقصى هذا المنحى تماما من موضوع قول بيدبا لقناعته بالميثاق الذي فرضه على الرعية والذي لا يكفل حرية الرأي في الحديث عن أمر الملك:

" وإن يكن من أمر الملك، ومما لا ينبغي للملوك
أن يبذلوه من أنفسهم و لا ينقادوا إليه نظرت
في قدر عقوبته،على أن مثله لم يكن ليجترئ على
إدخال نفسه في باب مسألة الملوك " [36].

وإذا كان الملك قد استبعد حديث بيدبا عن الملك من خطابه، فإنه احتفظ بهذه الإمكانية، وتوقع أنه سينظر في قدر عقوبة بيدبا لو أدخل نفسه في هذه المسألة. بهذه القراءة يكون الملك مقتنعا بحقيقة موضوع رغبة بيدبا، و هذا ما قاده إلى تسييج إطار بغيته في أمرين:

-"إما لالتماس شيء منا يصلح به حاله
- و إما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة"[37].

يضع تأويلُ دبشليم بيدبا في وضعية فاعل لا يملك القدرة على تحقيق موضوعه. وبالتالي فإن قدومه إلى فضاء القصر يؤول في الحالتين على أنه طلب إعانة و تحر عن موضوع جهة (القدرة على الفعل).

وسكوته عن طلب الإعانة، هو من منظور الملك، صادر عن كون العلم و الحياء إلفين متآلفين. وبالتالي، فإن حياءه هو الذي أثناه عن طلب المساعدة. وإذا كان سكوت بيدبا حرك الملك للتفكير في أمر العلماء، فإن هذا يعني أن بيدبا افتك منه، بفضل سكوته، **أولا: الاعتراف** بفضل العلماء الذي يعد في حد ذاته تمجيدا لهم. **ثانيا : استعداده** للنظر في مساره السياسي وفي حقوق الحكماء،ورفع الظلم عنهم. **ثالثا :قابليته** لنفي الجهل، وتثبيت العلم كقيمة أساسية في المجتمع:

"ومن لم يستحي من الحكماء ويكرمهم ويعرف
فضلهم على غيرهم، ويصنهم عن المواقف الواهنة،
وينزههم عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله،
وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم، وعد من الجهال"[38].

من هذه المنطلقات، يمكن أن يدرك القارئ بأن **الامتناع عن الكلام في مقام يقتضي الكلام هو كلام في حد ذاته و استراتيجية** (حيلة) سخرها بيدبا لجس نبض الملك أولا، وحمله، من دون أن يشعر، على قبول الحوار ثانيا؛ ومن ثم جره إلى تقديم تنازلات كان يستحيل أن يوافق عليها قبل عزمه على الذهاب إليه، ورفع التحدي بمواجهته.

"و أنا قد فسحت لك في الكلام"[39].

على الرغم من أن لهذا الملفوظ وقعا إيجابيا على نفس بيدبا إلا أن ذلك لم يكن كافيا لحمله على الحديث الصريح إلى الملك. ومع ذلك، فإنه استغل الفرصة، وبدأ يمهد للحصول على تنازلات أخرى من جهة، ولتنفيذ خطته والإعراب عن بغيته من جهة ثانية.

ومن الواضح أن بيدبا ،في هذا التمهيد، أقصى من خطابه الحديث عن العلاقة المتوترة بينه وبين الرعية، وأملها في رفع الغبن عنها، وركز فيه على التوجه بحديثه إلى الذات الإلهية لمناشدتها، ودعوتها لمؤازرة دبشليم في الحفاظ على ملكه. إن الإعلان عن هذه الرغبة محمل برسالة تبعث على انشراح الملك، وتخرجه في الوقت نفسه من الانقباض ومتاهات البحث عن جواب على هذه الزيارة المفاجئة لأن موضوع النصيحة لن يتضمن تبليغه رغبة الرعية في إحداث القطيعة مع الملك، وإزاحته عن الملك. ونلاحظ أيضا أن بيدبا قدم في هذا المقام التلفظي فعلا تأويليا ينهض على تقويم إيجابي(كرم الملك و إحسانه) للممارسة السياسية للملك في تعامله مع فئة العلماء. ويدخل هذا التقويم الإيجابي المسجل على مستوى الظاهر، والمسخر لاستمالة الملك، في علاقة تضاد وتعارض مع التقويم السلبي الذي أفرزه تأويله لبرنامج الملك المسجل على مستوى الكينونة والمتميز بالظلم، والاستبداد قبل لقاء سيجمع بيدبا بدبشليم .

يعرب بيدبا في بداية الأمر عن رغبته في عقد تواصل حقيقي مع الملك. ولن يستقيم الأمر إلا بالعمل على كل ما في وسعه لكسب ثقته. وعلى الرغم من أنه لم ينبس ببنت شفة، وفضل السكوت على الكلام، وعدم الكشف صراحة عن كينونته، فإنه يدرك أن موقفه المسجل إلى حد الآن ينطوي على نوع من التعمد في إحراج الملك بصمته المستمر الذي يحمل رسالة دالة على وجود إكراهات يجسدها غياب قدرته على التعبير مما يعني أن انطلاق اللسان لا ينبغي أن يتخذ حجة قد يلونها دبشليم بتهمة التجاسر عليه. وبالتالي فإن بيدبا، بإصراره على موقفه الصامت، يريد ضمانات حقيقة يقدمها له الملك يقف على رأسها حقه في الحياة:

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت :فإني مصغ إليك ،
وسامع منك،حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك
على ذلك بما أنت أهله "[40].

واضح من هذا الكلام أن دبشليم ارتقى بالتنازلات التي أشرنا إليها سلفا إلى إقامة عقد ائتماني مع بيدبا والترخيص له بالحديث، وإسداء النصيحة بكل حرية وإغرائه بالمكافأة. وسيكون لهذه الالتزامات التي قيد الملك نفسه بها تأثير كبير في المرحلة الحاسمة التي سيواجه فيها الملك بمسألة **المُلْكِ**.و قد أدت هذه الضمانات المتسمة بالصدق إلى تلطيف أجواء الحوار، ورفع القيود على بيدبا في مقام يتطلب الحذر والتحفظ الشديد. و يظهر ذلك واضحا في الملفوظ الآتي :

"فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ روعه،
وسري عنه ما كان وقع في نفسه من خوفه"[41].

وإذا كان بيدبا مضطربا بفعل الخوف الذي يشكل عائقا حقيقيا لتبليغ معرفته للملك، فإنه استطاع بمهارته، وذكائه، وحكمته أن يتجاوز هذه العقبة بتقديمه النصيحة على أنها امتياز خص به الملك، وهبة تشكل شكلا من أشكال التواصل الرامي إلى عقد رباط وصلي بالملك. في هذه اللحظة السردية، يشرع بيدبا في تنفيذ برنامجه بعرض اقتراحات عليه. إن هذا البرنامج يختلف من حيث الطبيعة عن البرامج التي ألفها القارئ في النصوص السردية حيث يسعى الفاعل المنفذ من خلال تحريه عن موضوع القيمة إلى الدخول في وصلة به. و لئن كان بيدبا يملك الموضوع (المعرفة) و يسعى إلى تحريكه لفائدة دبشليم والرعية في الوقت نفسه، فإن النصيحة التي تعد، في بعض مكوناتها، نصا ممتوحا من رصيده العلمي هي، من جهة، محصلة لقراءة سياسية في برنامج الملك الذي يعتبر هيئة متلقية ومؤولة ، و من جهة ثانية، اقتراح لبرنامج آخر يهدف إلى تحقيق بغية أساسية. ومما هو جدير بالذكر في هذا السياق أن بيدبا يعبئ كفاءته التي يفترضها النص لحمل الملك على الابتعاد عن القيم السلبية التي تتسم بها ممارسته السلطة السياسية، وإقناعه بالدخول في وصلة بمجموعة من القيم ستكون لها انعكاسات إيجابية في مراجعة إواليات اشتغال السلطة، وإعادة بناء علاقة جديدة بينه وبين الرعية وفق نظام جديد. ومن ثم،فإن بيدبا، من خلال اقتراحه النصيحة، يرغب في تأسيس الملك فاعلا منفذا في برنامج سياسي جديد كفيل بنقل الملك من وضعية فصلة عن الرعية إلى وضعية وصلة بها و نقله من سوء التدبير إلى حسن التدبير والتسيير. على هذا الأساس، سيشتغل تحريك بيدبا على مستوى كفاءة الملك في اتجاهين :

- أولا : تبليغه المعرفة في ممارسة السلطة .
- ثانيا :ترغيبه في تطبيقها.

إن مسعى بيدبا يَمْثُلُ في محاولة الحصول على التزام من الملك بتنفيذ البرنامج المقترح. ويبدو الدور العاملي لبيدبا واضحا في النص ؛ فهو في جميع الحالات يضع الملك بين اختيارين :القبول أو الرفض .إن حدوث الحالة الثانية تفضي إلى نتيجتين:

- النتيجة الأولى :تسليط العقوبة على بيدبا لأنه من منظور الملك اخترق حدود العقد **وتجاسر عليه** بحديثه عن أمور **الملك**.
- النتيجة الثانية: يرفض رفضا قاطعا التطبيق ويطرده من القصر. في كلتي النتيجتين يكون قد خرج من لوم يلحقه. إن تبليغ المعرفة يرتهن في وجوده إلى جهة أساسية في كفاءة بيدبا المتمثلة في الوجوب(يجب عليه أن يبلغ الملك) الذي يشكل، فضلا عن كونه جهة، قيمة استخلصها من تأويله لخطابات العلماء الذين سبقوه:

"الواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء.
والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها،
وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم،
ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن
العدل.فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على
الحكماء لملوكهم ليوقدوهم من رقدتهم"[42].

يمكن أن ننظر في هذه الملفوظات على أنها متضمنة،على الصعيد العرفاني،برنامجين أساسيين: يتصدر البرنامج الأول عامل جماعي يتحدد دوره بوجوب الاتعاظ. فهو من هذه الناحية خاضع للعامل الجماعي العلماء الذي يضطلع في البرنامج الثاني بمهمة تبليغ المعرفة المبنية على الحجة والصادرة عن تأويلهم الممارسة السياسية للملوك. تتسم مسألة تلقي المعرفة بالطابع الإلزامي. يعني أنه ليس للملك الحق في رفض النصيحة .فهو ملزم بالإصغاء والتنفيذ. ومن ثم، فهو مقيد بعقد إلزامي[43] تكون فيه الرغبة في التنفيذ تابعة و تحصيل حاصل:

العقد الإلزامي=/ وجوب الفعل / ⇦ /الرغبة في الفعل/.

من هذه الزاوية، يملك العلماء السلطة في اتخاذ قرار التوجيه السياسي كلما حدث خلل(حدوث الاعوجاج والخروج عن العدل) في تسيير شؤون الرعية. أما الملوك، فإنهم يشكلون الهيئة التنفيذية التي تنفذ ما تقرر.

"فإن فسح في كلامي و وعاه عني،فهو حقيق بذلك
و ما يراه،و إن هو ألقاه ، فقد بلغت ما يلزمني
و خرجت من لوم يلحقني"[44].
"فرأيت أن أجود بحياتي، فأكون قد أتيت فيما
بيني وبين الحكماء بعدي عذرا.فحملتها على التغرير
أو الظفر بما أريده "[45].

يقدم بيدبا في هذين الملفوظين الحالات الجديدة التي يتوقع أن يفرزها البرنامج الأساسي الخاص بمواجهته للملك. تنتج الحالة الأولى عن الفعل التحويلي الذي يمارسه بيدبا على الملك فيخرجه من وضع مفصول تماما عن المعرفة إلى وضع موصول بقيمها. وإذا فشل في تحويل دبشليم الذي انتصب

معارضا لأية رغبة في إسداء النصيحة،فإن هذا الفشل يولد حالة جديدة يكون فيها بيدبا قد شرف التزامه المتضمن في العقد الذي يربطه بفئة العلماء :

"والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها،
وتأديبها بحكمتها، و إظهار الحجة البينة
اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من
الاعوجاج و الخروج عن العدل "[46] .

و بالتالي فإنه يكون متحررا من عبء مسؤولية تبليغ الملوك:

"خرجت من لوم يلحقني"[47].

ينظم بيدبا ،في بداية المواجهة الكلامية، خطابه بضمير المتكلم و يتوجه به إلى الملك مباشرة :

"أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك
من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك"[48] .

حتى نفهم الآلية التي يشتغل بها الملفوظ ،نقدم الخطاطة الآتية: